

صباري الوطني والكرامة

في دروس التاريخ بالمدرسة
بقلم الانسة المهذبة حميدة قطب

من أهم العوامل التي تبعث في نفس الفرد الوطنية والاعتزاز بالقومية والكرامة الشخصية، أن يعرف أنه من أمة عمرية قوية ، تاريخها مملوءة بالبطولة والعظمة والسيادة . ومن أهم ما يضعف فيه روح الوطنية والقومية و يضطره إلى احتقار نفسه ووطنه أن يعرف أنه من أمة ضعيفة حقيرة ، لم تكن تترشح عنها أقدام غاصب حتى ترتجى تحت أقدام غاصب . لهذا كان التاريخ أهم ما يجب أن يوجه إليه الاهتمام في التربية ليتلقى التلميذ مبادئ الوطنية والكرامة في حجرات المدرسة قبل أن يشب وتتكون آراؤه .

ويجئ إلى أنه لو حذف دراسة التاريخ من المدارس المصرية لكان هذا خيرا للأمة من تعليمه لأبنائها في الدراسة الابتدائية والثانوية على هذه الصورة التي تزعم في نفوسهم كل اعتداد بمصريتهم وبشخصيتهم ، وتجعلهم يحقرون أنفسهم ووطنهم ويشعرون أنهم خدم لهؤلاء الأجانب الأسياد ، ويعتقدون أن مصر أمة ضعيفة صغيرة خلقت لتحتلها الأمم الكبيرة وتكون تحت سيادة أو تحت حماية دولة عظيمة ، بحيث لا تملك التصرف حتى في شؤونها الداخلية ، ولا تستطيع أن تبدي رأيها في مصيرها . فمثل هذه الأمة في نظر هؤلاء الصغار لا تستحق منهم الاحترام ولا الجهاد ولا التضحية في سبيلها .

إن طبيعة سن التلاميذ في المدارس الابتدائية والثانوية تجعلهم يجدون لبطولة والأبطال بقدر ما يحقرون الأمة الضعيفة المحتلة التي لا جيش لها ولا أسطول يدافعان عنها إذا اعتدت عليها دولة أخرى ، وإنما يدافع عنها الأجانب أصحاب السيادة فيها ، وهم في هذه السن لا يستطيعون أن يقدروا الظروف التي زمت بهذه الأمة في أحضان الاحتلال .

لهذا كان على وزارة المعارف إذا أرادت أن تنشئ لمصر جيلا تعمم نفسه الوطنية والقوة والاعتداد ، أن تغير منهج التاريخ التي تدرس الآن . ولا أفصح بهذا أن تغير تاريخ مصر أو تستبدل به تاريخ أمة أخرى ! إنما أقصد أن تنظمه وتسمه على حسب عقلية التلاميذ في سنينهم المختلفة ، وأن تدرسه بطريقة تشعرهم بأنهم من أمة عظيمة عريقة قوية بين أمم العالم .

يدرس تلاميذ المدارس الابتدائية الآن تاريخ فترة من أسوأ الفترات وأضعفها في تاريخ مصر، وهي الفترة الواقعة ما بين حكم العثمانيين والعهد الحديث، وهذه فترة ضعف واحتلال في قومي الأمة المصرية والمعنوية لم تنته إلا من عهد قريب . ففيها عصر الاحتلال التركي ، وهو عصر يجب ألا يعرفه الأطفال ، لما فيه من تحقير وتصغير لمصر والمصريين وإهانة الكرامتهما وإذا لم يكن بد من تدريسه لهم فيجب أن يدرس بطريقة تسخطهم على المعتدين وتشعرهم أن مصر مهما كانت محتلة فهي أمة عظيمة لا تقبل أن تهان كرامتها ، لا أن يدرس على هذه الطريقة التي تشعرهم بأن هذا الاحتلال وهذه الإهانة كانا أمرا طبيعيا لا يثير في نفوس المصريين أي تدمر بل يقابلونه بالرضا والاستسلام .

وفي كتاب التاريخ للسنة الرابعة الابتدائية أن السلطان العثماني وضع الحكم بمصر نظاما يضمن به بقاءها على الدوام ولاية عثمانية، وأن من أهم عيوب هذا النظام أن مدة الوالي كانت قصيرة، ولذا كان الولاية يتعمون بجمع المال لأنفسهم ويهملون مصلحة البلاد فكثرت النزاع بين الوالي والديوان ، ولا يذكر المؤلفون بعد ذلك أثر هذا النظام في نفوس المصريين وتدمرهم وإحساسهم بحمرمانهم حتى من مجرد الاشتراك في حكم بلادهم التي يجب أن يحكموها بأنفسهم ، لمعرفة التلاميذ أن الشعب المصري لم يكن راضيا ولا مستسلمًا بل كان يتحين الفرص لإظهار سخطه وتدمره .

وفي هذه الفترة أيضا يدرس تاريخ الحملة الفرنسية على مصر ، ويظهر فيه ضعف المصريين واحتلال أخلاقهم ورغبتهم في مآلة الفاتح بمحاولة إرضائه والتقرب إليه ونحو ذلك عاطفة وطنية في النفوس وموت كل نزعة استقلالية في القلوب .

ثم نكلى إضعاف روح التلاميذ الوطنية بمصر الاحتلال وما سبقه من تدهور الحالة الاقتصادية واستئانة مصر وتدخل الأحزاب في شؤونها الداخلية ، دون أن نشير في نفوسهم التمرد على الاحتلال ، بل نقول لهم إنه قد أدخل في مصر إصلاحات عدة كتخفيض الضرائب وتحرير الفلاح وتحسين وسائل الري . فلماذا إذن يبذلون جهدا للاستقلال وتلك فضائل الاحتلال ؟ !

إن هذا البرنامج كان صالحا لعهد الاحتلال ، لأنه يجيب رغبته في إضعاف الروح الوطنية والقومية وحب الاستقلال في الشباب الذين تقوم على أكتافهم كل حركة وطنية لتحرير بلادهم .

والتلاميذ الصغار الذين يدرسون تاريخ بلادهم بمثل هذه الطريقة لا يمكن أن تستشعر نفوسهم العزة القومية ولا الكرامة الوطنية ، حتى إذا شجوا وفي نفوسهم بذور الضعف والدعة

والخمول نصيب عليهم هذا وتمهمهم بأن هذا كامن في طبيعتهم ، مع أننا لو بحثنا عن سببه لوجدناه في دراسة التاريخ على هذه الصورة .

يحسن ألا يدرس التلاميذ في المدارس الابتدائية إلا سيرة الأبطال القوميين في أسلوب روائى مشوق يثير ما كمن في نفوسهم من وطنية وقومية ؛ وسيرى كل تلميذ في هؤلاء العظماء مثلا عاليا يود لو يحققه ليكتب له الوطن والتاريخ مثل ما كتب لهم من مجد وخلود .

ثم يجب أن يدرس التلاميذ بعد ذلك في المدارس الثانوية كل عصور النهضة في التاريخ المصرى القديم والحديث ، وتترك الدراسة الشاملة لعصور الضعف والانحلال ، وعصور القوة والعظمة للطبقة في التعليم العالى ، فحرفتهم لهذه العصور في مثل هذه السن لا تؤثر في وطنيتهم ولا في احترامهم لمصر ولأنفسهم . ثم هم يستطيعون أن يعرفوا طبيعة الشعب المصرى ولظروف التى رمت به في كل مرة في أحضان الاحتلال .

قرأت : أن إمبراطور ألمانيا السابق دخل فصلا في مدرسة أطفال فسمع المدرس يقول لهم : إن ألمانيا كانت عدة ولايات متفرقة . فوقف الإمبراطور وقال لهم : "إن هذا الكلام غير صحيح وألمانيا لم تكن في يوم ما ولايات ، بل خلقت كما هى الآن أمة متحدة عظيمة" وبعدها انتهى الدرس قال للمدرس : "إن هؤلاء الأطفال يجب ألا يعرفوا عن بلادهم إلا العظمة والقوة منذ أن نشأت ، ويجب أن تترك الدراسة التفصيلية لطبقة الجامعات" .

هذا هو رأى الألمان في دراسة التاريخ ، ولكن النظرية الأمريكية على نقيضه ، فهى تقول بوجود دراسة التاريخ كما هو ، وألا يتأثر بالمعاطفة القومية ، لأن اتصاله بهذه الناحية يعلم كل تلميذ أن بلاده يجب أن تسود العالم ، فإذا شب هؤلاء التلاميذ رغبوا في تحقيق ما تعلموه فقتلوا نيران الحرب وينشأ النطاحن بين الدول .

وقد نشأت هذه النظرية عند الأمريكيين . لأنهم في قارة بعيدة منفصلة عن العالم ، وليسوا مهتدين دائما بالإغارة عليهم واحتلالهم . ولو كانوا في أوروبا أو لو كان موقع بلادهم كواقع مصر مهتدا دائما بالإغارة عليها من كثير من الدول لما نشأت عندهم هذه النظرية .

وإيس من الضرورى أن يتم تلاميذ أن بلادهم يجب أن تسود العالم ، ولكن يجب أن يدفعوا بمصل ضد أى احتلال يستطيعوا أن يقاوموا غارات المعتدين على استقلال بلادهم وحريةهم . وأن يعيشوا معتزين بقوميتهم وكرامتهم ما

حميدة قطب